محورية الدين في البناء الحضاري الخلدوني
(القرآن الكريم أنموذجا)

د.ليليا شنتوح
كلية العلوم الإسلامية-خروبة-

الحمد لله والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، الصادق الأمين محمد صلى الله عليه وسلم، وبعد:

يؤكد كثير من المهتمين بفلسفة الحضارة وفلسفة التاريخ أهمية الدين في بناء الحضارة الإنسانية، فهو العنصر الأساس في البناء والتشييد والانطلاق والنهضة، بل هو عند بعضهم العامل الوحيد الذي تتوحد به منافع الأمة ومشاعرها وأفكارها، ومن هنا لم يكن غريبا أن يهتم مفكرو الإسلام بتأصيل هذه الفكرة وتطبيقها على الحضارة الإسلامية التي كان الدين بلا منازع هو أصل نشأتها وباعث نهضتها وإليه ترجع عوامل ازدهارها وقوتها.

ويعتبر ابن خلدون من أبرز المفكرين الذين أولوا البعد الديني ودوره في البناء الحضاري أهمية بالغة من خلال مؤلفه العبر وخاصة مقدمته الشهيرة التي اعتمد فيها بشكل كبير على مناهج التفكير الإسلامي في كثير من القوانين التي استخرجها بعد فحصه لظواهر العمران، فقد ألهمته دراسته للقرآن الكريم وعلومه إلى اكتشاف قوانين ومبادئ عامة عن النفس البشرية والاجتماع الإنساني، ودفعته إحاطته بعلوم الحديث إلى تحري الصدق دائما في كل ما يسمع ويبحث عن الحقيقة في كل ما يقرأ، ويتوخى الدقة في كل ما يشاهد، وأرشدته الدراسات الفقهية إلى أهم حلوله في البحث عن الظواهر الاجتماعية، واستوحى من البحوث الكلامية العديد من قواعد الاجتماع السياسي والبدوي، وقد تفاعل مع كل هذه الدراسات أخذا وعطاء في أغلب نظرياته الاجتماعية، ولكن على الرغم من هذا الوضوح في أثر الدراسات الدينية في فكر ابن خلدون، فقد ذهبت الكثير من الدراسات الغربية والعربية وحتى الإسلامية إلى القول بعقلانية صاحب المقدمة، وأن كتاباته خالية من الجانب الديني الروحي، وأنه وإن تأثر بالدين في بعض الصفحات والمباحث فهو أثر عابر وغير مقصود لذاته.

ومن هنا تأتي مداخلتي الموسومة ب"محورية الدين في البناء الحضاري الخلدوني" اسهاما منا في محاولة الرد على تلك البحوث التي أقرت بعلمانية ابن خلدون و نفت عنه -وكما ألمحنا سالفا- تأثره بالدين الإسلامي كأساس في بناء نظرياته الاجتماعية والحضارية وسبكها.

وهنا يجب أن ننبه إلى أن إضفاء الخاصية الدينية الإسلامية على الطرح الخلدوني لنظرياته لا نقصد بها بالضرورة التناول الشرعي الشمولي الحدي الذي يستغرق مفردات هذه النظريات جميعها بالتنصيص من الوحي والآثار المنقولة، وإنما المقصود بها مسايرة هذه النظرية لأبعاد الدين ومقاصد الشريعة بالتطابق حينا وبالتوافق حينا آخر وبالتقارب في أحيان أخرى، وربما يكون من ضروب هذه المسايرة استدلال ما بنص من القرآن أو نص من السنة أو أثر منقول في إطار التأصيل لقضية من قضايا العمران والاجتماع والتاريخ والسياسة، أو في سياق التدليل عليها والتأسيس لمشروعيتها وآثارها.

ولسنا نحاول في هذه العجالة أن نتناول كل الدراسات الدينية الإسلامية مثل الدراسات الحديثية والفقهية والكلامية، وأثرها في الفكر الخلدوني فتلك مهمة لا يسع لها هذا المقام الضيق، ولكننا سنحاول بيان أثر الدراسات القرآنية كنموذج في بناء الفكر الخلدوني الحضاري.

وانطلاقا من اعتبار الفكر الخلدوني قابل للتعمق والتجدد بدليل إشارة ابن خلدون نفسه حين قال :" وقد استوفينا من مسائله ما حسبناه كفاية، ولعل من يأتي بعدنا ممن يؤيده الله بفكر صحيح وعلم مبين يغوص من مسائله أكثر مما كتبنا"[1]، ونظرا لأن أفكاره مازالت مؤثرة بقوة ولم تبتعد كثيرا عن حاضرنا رغم اهتماماته المختلفة وتعقيداته المتشعبة، ما يجعل الحاجة ماسة إلى العودة إليه في الواقع ضرورة أساسية للاستلهام منه.

1- إشكالية الدين والعلمانية عند ابن خلدون بين النفي والإثبات:

تنوعت الدراسات التي اهتمت بابن خلدون مؤرخا ومؤسسا لعلم العمران البشري أو فيلسوفا للتاريخ في الشرق والغرب، فهذا بحث عن الأفكار الاجتماعية في الفكر الخلدوني، وهذه دراسة عن الفكر الاقتصادي، وأخرى عن المنطق وعلم الكلام، وأخرى عن السياسة عند ابن خلدون، ولكنها قليلة تلك التي تناولت محور الدين في فكر ابن خلدون ونظرياته العلمية، بل إن العناية بابن خلدون تصدرتها الدراسات الأوروبية والأمريكية الإستشراقية.

وإن الملحوظ على أغلب هذه الدراسات وخاصة الإستشراقية منها أنها سعت من أجل إخراج ابن خلدون من بيئته الدينية الإسلامية التي عاش في

[1]- ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر تح: خليل شحادة، ط2، بيروت: دار الفكر، (1408هـ-1988م)، ص840.

كنفها، وتبنت أفكاره، ورمت به بعيدا إلى منظومة فكرية أخرى لا تمت إلى مرجعيته الدينية بصلة، ومن الأمثلة على ذلك ما كتبه دي بوير T.J.de Boer (الهولندي) بقوله:(إن الدين لم يؤثر في آراء ابن خلدون العلمية بقدر ما أثرت الأرسطوطاليسية الأفلاطونية)[1]، وما أشار إليه الأستاذ ناتانيل شميث N.Schmidh من جامعة كوريل بأمريكا -إن ابن خلدون-: (إذا كان يذكر خلال بحثه كثيرا من آيات القرآن، فليس لذكرها علاقة جوهرية بتدليله ولعله يذكرها فقط ليحمل قارئه على الاعتقاد بأنه في بحثه متفق مع نصوص القرآن)[2]،

وأيضا كتابات المستشرق الألماني هو فون فيسنديكvon wesendont حين قال:(ابن خلدون تحرر من أصفاد التقاليد الإسلامية في درس شؤون الدولة والإدارة وغيرهما، وأنه حرر هته كذلك من القيود الفكرية التي ارتبطت في عصره بالعقائد العربية الصحيحة) [3].

وهذه الشهادات وغيرها تروم إلى بيان أن ابن خلدون ليست لديه أي علاقة بالدين الإسلامي منهجا وموضوعا، بل منهم من صوره على أنه مفكر علماني على الطريقة الغربية يؤمن بالدين، ولكنه لا يقحمه في نظريته في التاريخ والحضارة.

بل منهم من عمد إلى حذف القرآن والتفسير والقراءات والحديث من قائمة العلوم التي لقنها ابن خلدون، قال بوتول: (وماذا تعلم في الزيتونة، إنه يروي لنا سلسلة دروسه كانت تشتمل على علم الكلام والفقه والعلوم الطبيعية والفلسفية..) [4].

ولكن بالرغم من هذه الشهادات المشار إليها هنا لهذا المفكر، فقد انصفته بعض الدراسات الغربية لمجموعة من الباحثين الغربيين، حيث يقول جورج سارتون sarton G: (لكي نفهم ابن خلدون يجب أن نضع في أذهاننا خلفيته الدينية، وفي هذا الصدد يمكن أن يقال أن أسس أفكاره لم تكن اجتماعية بل دينية).

ويقول المستشرق جب هاملتون: (إن ابن خلدون كان من كبار علماء المسلمين ومن الشخصيات المرموقة في مذهب الإمام مالك، وأنه على سعة

---

[1]- محمد عبد الله عنان: ابن خلدون، حياته وتراثه الفكري، ط1، القاهرة: دار الكتب المصرية، 1933ص17.

[2]- عماد خليل: ابن خلدون إسلاميا، ط1، بيروت: المكتب الإسلامي،(1403هـ-1983م)، ص06.

[3]- عماد خليل: ابن خلدون، حياته وتراثه الفكري، ط1، القاهرة: دار الكتب المصرية، ص06.

[4]- فاستول بوثول: ابن خلدون فلسفته الاجتماعية، ص28، نقلا عن محمد العلاني: أثر الدراسات الدينية في تفكير ابن خلدون، رسالة دكتوراه، تونس، 1983، ج1، ص 384.، ص06.

أفقه لم يصدر رأيا واحدا يجافي تعاليم الإسلام، بل إن مفاهيمه المتطورة كانت تطويعا للمجتمع من منطلق روح المبادئ الإسلامية)[1].

وهذا التناقض في التصريحات حول ابن خلدون يعود -حسب رأينا- إلى عاملين:

العامل الأول: ويتمثل في اختلاف مسالك الدارسين ومناهجهم في توطين معارفه في السياقات التاريخية والاجتماعية والحضارية التي ظهر فيها المجتمع الإسلامي العربي المغاربي في ذلك الوقت.

والعامل الثاني: أن الكثير ممن كتبوا عن ابن خلدون وظفوا رؤيتهم الجزئية لفصول محددة من كتاب المقدمة أو لجوانب معينة مما عرفوا عنه من سيرة حياته، واعملوا فيها البحث والمناقشة، ومارسوا عمليات الاستيلاب والتجيير، فاحترزوا من تناول الأبواب والفصول التي تشير إلى الدين والتدين والعقيدة.

ولكن قبل الحكم على ابن خلدون بأي حكم كان يجب علينا أولا معرفة سيرته الذاتية، فإذا كان كل شخص ابن بيئته –كما يقول علماء الاجتماع- فهل كانت بيئته بعيدة عن الأصول الدينية الإسلامية حتى تكون أفكاره ونظرياته بعيدة عن الدين الإسلامي، هذا ما سنحاول معرفته فيما يلي:

[1]- جب هاملتون: الأساس الإسلامي للنظرية السياسية لابن خلدون، مجلة مدرسة الدراسات الاستشراقية ج1، مج 7، ص23، نقلا عن الشكعة مصطفى: الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته، القاهرة الدار المصرية اللبنانية، (1968م)، ص 166.

2- موجز سيرته الذاتية:

ترك ابن خلدون ترجمة وافية لنفسه منذ ولادته حتى مشرف خاتمته، وقد ذكر فيها اسمه ونسبه الطويل، قائلا: "عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن الحضرمي الإشبيلي"[1] الأصل التونسي المولد ثم القاهري المعروف بابن خلدون، المكنى بولي الدين أبي زيد ينحدر من أسرة عربية أصلها من حضر موت[2]، ترجع إلى الصحابي الجليل وائل بن حجر[3] واستقرت منذ أوائل القرن الثالث للهجرة بإشبيلية[4]، ثم انتقلت إلى سبتة[5]، ومن هناك اتجهت إلى إفريقية التي استقرت بها في عهد أبي زكرياء الحفصي[6].

ولد بتونس في أول رمضان سنة ثنتين وثلاثين وسبعمائة للهجرة ونشأ بها يقول ابن خلدون:" ولدت بتونس في غرة رمضان سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة"[7]، وقد كان سليل أسرة عريقة اشتهرت بتحمل العلم و والسياسة، قال ابن خلدون:(كان والدي نازعا عن طريق السيف والخدمة إلى طريق العلم والرباط)[8]، فكان والده من أهل العلم الصالحين، وقد تربى في حجره، يقول ابن خلدون: (وربيت في حجر والدي رحمه الله إلى أن أيفعت)[9]، ومن هنا بدأت رحلة ابن خلدون في طلب العلم، فحفظ القرآن الكريم بالقراءات، قال

---

[1]- ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، تر: صالح أحمد العلمي، ط1، بيروت: دار الكتاب اللبناني،(1979)، ص02.

[2]- **حضر موت:** تقع باليمن، قال عنها صاحب العقد الفريد: حضر موت -نسبة إلى- ابن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن حيدان بن قصيّ بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن حمير. منهم: ذو مرحب، وذو نحو؛ ومنهم الأعدل؛ ومنهم: بنو مرثد، وبنو ضجع، وبنو حجر، وبنو رحب، وبنو أقرن، وبنو قليان.
انظر عنها:ابن عبد ربه: العقد الفريد، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، (1404هـ)،ج3، ص351.

[3]- **وائل بن حجر**:هو وائل بن حجر بن سعد، أبي هنيدة الحضرمي، أحد الأشراف. كان سيد قومه . له وفادة وصحبة ورواية.
انظر ترجمته في: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ط، دب: مؤسسة الرسالة(1422هـ-2001م)، ج2، ص573.

[4]- **إشبيلية** : مدينة تقع في جنوب إسبانيا، تقع على ضفاف نهر كبير.

[5]- **سبتة** : مدينة بالمغرب الأقصى، تابعة لإسبانيا الآن، قال عنها ابن حوقل: مدينة سبتة المحاذية من الأندلس لمدينة جبل طارق.
انظر عنها: ابن حوقل: صورة الأرض، دط، بيروت: دار صادر، (1938م)، ج1، ص 75.

[6]- ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، تح: ابن تاوت الطنجي،ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، (2004م)، ص: 36.

[7]- ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، طبعة دار الكتاب اللبناني، ص17

[8]- ابن خلدون: التعريف، ص 13.

[9]- ابن خلدون: المقدمة، ص 12.

ابن خلدون:(وقرأت القرآن العظيم على الأستاذ المكتب أبي عبد الله محمد بن سعيد بن بزال الأنصاري) وقال:(وقرأته عليه بقراءات السبع المشهورة..)[1] وسمع كتبا في الحديث الشريف مثل موطأ مالك(ت179هـ) وصحيح مسلم (ت226هـ) وبعضا من الأمهات الخمس، وأخذ الأصلين والمنطق وسائر العلوم الحِكمية والتعليمية عن شيخه الآبلي(ت757هـ)[2] الذي شهد له بالتبريز في ذلك كله،، وسمع وقرأ عددا من الكتب الفقهية المعتمدة ككتاب التهذيب لأبي سعيد البرادعي[3] وكتاب مختصر ابن الحاجب(ت646هـ)[4] .

كما حفظ الشعر وقرأ المنطق وغيره من العلوم العقلي[5].

رحل إلى بلاد المغرب والأندلس واعتقل وامتحن ورجع إلى تونس التي فر منها إلى مصر وتولى قضاء المالكية بالقاهرة ست مرات[6].

درس في عدة جوامع ومدارس هي بمثابة الجامعات كجامع القصبة في مدينة بجاية، وجامع القرويين في فاس، والجامع الأزهر بالقاهرة وغيرها[7].

أخذ عنه تقي الدين المقريزي(ت845هـ)[8] وابن حجر العسقلاني(ت852هـ) وغيرهما، عاش المحنة في عمله وفي أسرته، فقد لقي من مناصبه أسوأ العواقب واعترضته دسائس ووشايات، وغرق جميع أفراد أسرته في البحر عندما أرادوا اللحاق به[9].

من آثاره :

---

[1]- المصدر نفسه، ص 17.

[2]- **الآبلي** : هو محمد بن إبراهيم الآبلي، عالم المعقول والمنقول، تلقى على ابن البناء بمراكش التعاليم-المنطق والرياضيات- والحكمة. انظر: ابن خلدون: التعريف، ص40.

[3]- **البرادعي**: هو أبو سعيد خلف بن أبي القاسم الأزدي القيرواني المغربي المالكي صاحب كتاب التهذيب.

انظر ترجمته في: محمد مخلوف: شجرة النور الزكية،: شجرة النور الزكية،ط1، بيروت: دار الكتب العلمية،(1424هـ-2003م)، ج1، ص105.

[4]- **ابن الحاجب**: هو عثمان بن عمرو بن أبي بكر بن يونس أبو عمرو، جمال الدين، فقيه مالكي من كبار العلماء كردي الأصل، ولد سنة 570هـ، وتوفي سنة 646هـ، له عدة تصانيف منها: مختصر الأصلي، الكافية في النحو.

انظر ترجمته في: الزركلي: الأعلام، ج4، ص211.

[5]- مصطفى الشكعة: الأسس الإسلامية، ص 22

[6]- محمد مخلوف: شجرة النور الزكية، ج1، رقم الترجمة 846، ص 227

[7]- محمد مخلوف: المرجع نفسه، ص 227

[8]- **المقريزي:** هو تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم بن تميم المقريزي الحنفي، نشأ بالقاهرة، وتوفي بها سنة 845هـ.

- انظر ترجمته في: شمس الدين السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج2، ص21.

[9]-مصطفى الشكعة: الأسس الإسلامية، ص 22.

- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ويعرف بتاريخ ابن خلدون وأولها المقدمة وهي تعد من أصول علم الاجتماع وختم العبر بفضل عنوانه التعريف بابن خلدون وقد طبع في كتاب مستقل[1].
- شرح البردة[2].
- كتاب في الحساب.
- رسالة في المنطق.
- شفاء السائل لتهذيب المسائل
- كتاب مناظرة في علم الكلام على طريقة الصوفية والمتصوفة وآدابهم وكلامهم.
- شرح قصيدة ابن عبدون[3] الإشبيلي.
- لباب المحصل في أصول الدين، وهو تلخيص لكتاب محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من

العلماء والحكماء والمتكلمين لفخر الدين الرازي[4]، [5].

- تلخيص المحصول للفخر الرازي.
- طبيعة العمران[6].

توفي – رحمه الله تعالى- ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان سنة ثمان وثمانمائة للهجرة الشريف، ودفن بمقابر الصوفية خارج باب النصر[7].

---

[1]- التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، طبع بالقاهرة سنة 1951/1370، تعليق محمد بن تاويت الطنجي

[2]- قصيدة البردة أو قصيدة البُرأة أو الكواكب الدريَّة في مدح خير البرية، أحد أشهر القصائد القصائد في مدح النبي محمد، كتبها محمد بن سعيد البوصيري في القرن السابع الهجري الموافق القرن الحادي عشر الميلادي

[3]- **ابن عبدون**: هو محمد بن أحمد بن عبدون التجيبي الإشبيلي.

انظر:ابن عبدون: ثلاث رسائل أندلسية، تح: إ.ليفي بروفنسال، دط، القاهرة: مطبوعات المعهد العالمي الفرنسي للآثار الضرقية، ص03

[4]- **الفخر الرازي** : هو محمد بن عمر بن الحسين أبو عبد الله فخر الدين الرازي، ولد سنة 544هـ، الإمام المفسر أوحد زمانه في المعقول والمنقول، له مصنفات كثيرة منها: محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين..

انظر ترجمته في: ابن خلكان: وفيات الأعيان، مج4، ص248-249

[5]- عمر كحالة: معجم المؤلفين، مج3،ج5، ص189.

[6]- عمر كحالة: معجم المؤلفين، مج3،ج5، ص189.

[7]-السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دط، بيروت: دار مكتبة الحياة، دت، ج4، ص145.

هذا بالنسبة لسيرته الذاتية الموجزة، وهنا نصل إلى طرح سؤال في غاية الأهمية هو إذا كان ابن خلدون سليل أسرة إسلامية دينية محافظة، وقد حفظ القرآن، وأتقن علم القراءات، ودرس في الزيتونة فهل كانت لهذه الدراسات الدينية والقرآنية خصوصا أثر على معالم تفكيره والتي أسهمت إسهاما فعليا في عمل ابن خلدون في عرضه لمسائل العمران والاجتماع الإنساني أم لا ؟ هذا ما سنحاول بيانه من خلال هذا العنصر.

3- أثر الدراسات القرآتية في الفكر الخلدوني:

يعتبر القرآن الكريم أول نبع من ينابيع الثقافة الخلدونية، فقد كانت تربيته الأساسية مزيجا بين التربية القرآنية واللغوية في أحضان أسرته الأولى، وهذا ما يبدو لنا من خلال تتبع سيرته العطرة التي سطرها بنفسه في كتابه التعريف-كما نوهنا إلى ذلك آنفا- حيث أشار إلى حفظه القرآن الكريم وهو في سن صغيرة، وإلى مختلف القراءات التي كان يقرأ بها القرآن، وكيف ختمه على كثير من شيوخه المختصين من ذوي الخبرة، كما أن المتفحص للمقدمة يجد ابن خلدون خبيرا بأكثر التفاسير القرآنية[1] التي ازدهرت في عصره ومازالت إلى اليوم من الأصول المعتمدة في الدراسات التفسيرية مثل تفسير الطبري(310هـ) والزمخشري(ت685هـ)[2]

وابن عطية(ت541هـ)[3] من خلال مناقشته لبعضهم بإبداء رأي أو ترجيح قول على قول[4]، وإن اعتماد ابن خلدون على القرآن والتفاسير المختلفة هو

---

[1]- ابن خلدون: التعريف، ص 17.

[2]- **الزمخشري**: هو أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله. ولد بزمخشر من ضواحي خوارزم، سنة 467هـ كان إمامًا في التفسير والنحو واللغة والأدب، واسع العلم، وتوفي بقصبة خوارزم ليلة عرفة سنة 538هـ. وكان معتزلي المذهب ألَّف الزمخشري تصانيف عديدة في صنوف المعرفة المختلفة، منها: الكشاف وكتاب الفائق، و كتاب أساس البلاغة، والمفصل، والأنموذج، والمفرد، والمؤلَّف، وشرح أبيات كتاب سيبويه،

انظر ترجمته في: ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب، تح: محمود الأرناؤوط، ط1، بيروت: دمشق، دار ابن كثير،(1986م) ج1، ص 182،

[3]- **ابن عطية:** هو أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن ابن تمام بن عطية المحاربي، ولد بغرناطة سنة 481هـ، عالم وفقيه جليل، عارف بالحديث والتفسير والأحكام. لغوي وأديب، ترك ابن عطية كتابين فقط،هما فهرست و كتاب المحرر الوجيز في التفسير توفي ابن عطية في لورقة من بلاد الأندلس سنة 541هـ.

انظر ترجمته في: الذهبي: سير أعلام النبلاء، تح: شعيب الأرناؤوط، ط3، دب: مؤسسة الرسالة، (1985م)، ج20، ص 133.

[4]- انظر على سبيل المثال في رده على المفسرين في تفسير قوله تعالى: {**إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ**}الفجر7، وبعد احتجاجه عليهم بما لديه من أخبار تاريخية أو رد بعض أسباب تلك

اعتماد الخبير المدرك الذي مارس هذا النبع الأصيل ممارسة عميقة، حتى أن بعض الناقدين كطه حسين[1] لم يناقش ولم يشكك في تخصص ابن خلدون في ميدان القرآن وعلومه، في حين أنه شك في تعمقه في بعض الدراسات وإطلاعه على بعض الكتب ككتب ابن الحاجب والأغاني.

والحق أن ابن خلدون قد تفرد في توظيف النص القرآني والإفادة منه في مواطن عديدة، فقد حرص أن يختتم كل فصل من فصول المقدمة بآية قرآنية أو حديث نبوي[2] في إطار حديثه عن العمران والعصبية والاجتماع الإنساني، وهذا ما لم تألفه الدراسات التي سبقته في هذا الميدان، منطلقا في ذلك من الوحي المعصوم، ويبدو أن السبب في ذلك هو أن فلسفة التاريخ -عنده- هي النظرة الشمولية إلى التاريخ في حاضره وماضيه ومستقبله وهي فلسفة ونظرة تحتاج إلى مصدر متعال يمكن من إعطاء معنى للتاريخ[3].

وسنحاول من خلال ما يلي بيان الأثر القرآني على الدراسات الخلدونية الحضارية من خلال اختيار بعض النماذج من كتابه العبر وفي الفصول المتعلقة بالمقدمة على وجه الخصوص.

- **اختياره عنوان كتاب العبر على ضوء القرآن**

إن التأثير القرآني في تفكير علماء المسلمين قد كان قدرا مشتركا في طريقة كتاباتهم، واختيار عناوينهم واختيار مقدماتهم العامة، وتسمى عادة خطبة الكتاب، بطريقة تمزج بين اظهار التمسك بتعاليم القرآن ولفظه أيضا، وبين تضمين الخطوط العريضة العامة لمحتويات مؤلفاتهم في قالب معروف، ونسق معهود يغلب عليهما السجع والصنعة ويسمونها ببراعة الاستهلال.

وإن الوقوف على محتوى عنوان كتاب ابن خلدون العبر وخطة الكتاب التي تتصدر المقدمة وتمهد لكل الفصول يدل على وجود هذا المنزع، يقول ابن خلدون عن سبب اختياره لعنوان كتابه العبر:" أما بعد، فإنّ فنّ التّاريخ من الفنون الّتي تتداوله الأمم والأجيال[4]... إذ هو في ظاهره لا يزيد عن أخبار

التفاسير التي لا يرى وجاهتها قائلا: " وأي ضرورة هذا المحمل لتوجيهه لأمثال هذه الحكايات".

انظر: ابن خلدون، المقدمة، ص20

[1]- انظر: طه حسين: فلسفة ابن خلدون الاجتماعية تحليل ونقد، ط1، مصر: دار الاعتماد، (1443هـ-1925م).

[2]- عبد الحليم عويس: التأصيل الإسلامي لنظرية ابن خلدون، ط1، قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، (1416هـ- 1996م)، ص47.

[3]- غسان علي عثمان: مقدمة في فلسفة التاريخ من منظور إسلامي،

انظر:http://www.5lejy.com/vb/archive/index.php/t-24313.html

[4]ابن خلدون: المقدمة، ص 06.

الأيام والدول[1]...وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات [2]، ولما طالعت كتب القوم وسبرت غور الأمس واليوم نبهت عين القريحة من سنة الغفلة والنوم[3]، فأنشأت في التاريخ كتابا ورفعت عن أحوال الناشئة من الأجيال حجابا وفصلته في الأخبار والاعتبار بابا بابا، وأبديت فيه لأولية الدول والعمران عللا وأسبابا[4]، ولما كان مشتملا على أخبار العرب والبربر من أهل المدن والوبر سميته كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر[5].

ولم يكن ابن خلدون أول من اختار هذا العنوان العبر لكتابه في التاريخ فنجد شمس الدين الذهبي اختصر كتابه تاريخ الإسلام في كتاب أسماه "العبر في أخبار من غبر".

ولا شك أن ابن خلدون قد حاول أن يجمع فيه كما يبدو في المقدمة ملخص ما يريد تفصيله في أبوابه فكانت أول كلمة في هذا العنوان العبر، وقد رمز به كما المقدمة التي تحوي مجمل نظرياته الاجتماعية، أما باقي العنوان فهو يرمز إلى باقي الكتاب الذي تناول فيه تاريخه المعروف .

ثم إن العبر جمع لعبرة، وهذه المادة قد وردت في القرآن الكريم في كثير من الآيات القرآنية- قال تعالى: {**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ**}[6] وقال أيضا: { **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي الأَبْصَارِ**}[7]، وقال: {**وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم** }[8]، قال:{ **فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ** }[9]وغيرها من الآيات الأخرى.

فلو قارنا بين العبر عند ابن خلدون والعبرة والاعتبار في القرآن، لوجدنا الهدف نفسه الذي يرمي لتحقيقه ابن خلدون اقتباسا من معاني القرآن الكريم في اطلاقه للعبرة والاعتبار، فقد بين صاحب المقدمة أنه ما اختار هذا العنوان العبر إلا لاشتماله على ما يبعث على الاعتبار والنظر والتأمل والذكرى بنفس المعنى الذي نورته الآية الكريمة.

---

[1] - المصدر نفسه، ص 06.
[2] المصدر نفسه، ص06.
[3] المصدر نفسه، ص08.
[4] المصدر نفسه،ص04.
[5] المصدر نفسه، ص10.
[6] سورة يوسف، الآية 111.
[7] سورة آل عمران، الآية 13.
[8] سورة المؤمنون الآية 21.
[9]سورة الحشر، الآية 02.

وقد ذكر الإمام السخاوي في كتابه الإعلان تعريف بعض المؤلفين[1] للتاريخ يبدو منه تأكيد العلاقة بين النص القرآني والتاريخ، فقال:

وبعد فالتاريخ والأخبار علم له في الملة اعتبار

وقد كفى فيه من البرهان ما جاءنا من قصص القرآن [2]ـ

فإذا كان في النص القرآني وهو عنصر هام من عناصر التاريخ الإنسانية عبرة لأولي الألباب، فإن في مقدمة تاريخ ابن خلدون عبرا أيضا بما اشتملت عليه من أخبار الأولين.

هذا بالنسبة لاختيار عنوان كتابه العبر، نأتي الآن للعنصر الثاني وهو:

- **الأرض والعمران في القرآن وعند ابن خلدون:**

لقد خصص ابن خلدون الأرض بالذكر، وإبراز ما يحدث على أديمها من أطوار يعيشها الإنسان الذي أنشأه الله عليها، وبذلك كانت الأرض منطلق البحث في العمران البشري في كل ما يتعلق وما يدور عليها من أحداث إنسانية وعناصر للعمران، إذ أن ابن خلدون أبى إلا أن يجعلها أول اهتماماته بعد تمجيد الله مباشرة، ويبدو أنه كان منسجما مع القرآن الكريم في الاهتمام بالأرض، وهو محسن في ذلك باعتبار تقديم الأرض على غيرها من عناصر الوجود، وقد كان استلهامه من القرآن واضحا خاصة وأن القرآن كثيرا ما ركز على هذا الكوكب في سوره وآياته ناهيك أن ذكر الأرض قد ورد في 461 [3]مرة خلال تسعة وسبعين سورة، وهنا نتساءل عن المعاني التي اقتبسها ابن خلدون من الأرض وأثرت على معالم تفكيره في البناء الحضاري؟

ومن الآيات التي استوحى منها بن خلدون أولى عباراته في المقدمة والدالة على إنشاء الإنسان في الأرض وابتداء العمران فيها قول ابن خلدون: "انشأنا من الأرض نسما"[4]، وجاء في القرآن : {**هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ**}[5]، ويقول ابن خلدون: "واستعمرنا فيها"[6]، وجاء في القرآن:

{**وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ** }[7]

---

[1] هو محمد بن القاضي الجمال يوسف.

[2] السخاوي: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، ط1، بيروت: دار الرسالة، (1407هـ-1986م)، 1986م)، ص95.

[3] انظر : محمد فؤاد عبد الباقي : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، القاهرة: دار الحديث، (1364هـ).

[4] المقدمة ص 05.

[5] سورة هود، الآية 61.

[6] المقمة، ص05.

[7] سورة هود، الآية 61.

ولاشك أن انشاء الإنسان في الأرض قد نتج عنه تعميرها، وهو ما اصطلح ابن خلدون على تسميته بالعمران البشري والاجتماع الإنساني موضوع علمه الجديد الذي يوعز اكتشافه من طرفه إلى الإلهام الإلهي:قال ابن خلدون:" اطلعنا الله عليه من غير تعليم أرسطو ولا إفادة موبيذان"[1]، وقال: "ونحن ألهمنا الله إلى ذلك إلهاما"[2].

ومن هنا تناول ابن خلدون مسائل نشأة الأرض وخلقها وقد تلازم ذلك مع العمران الذي أراده الله لهذه الأرض، فمنطلق ابن خلدون وكما لاحظنا منطلق إيماني ديني صرف يعتمد الوحي القرآني، ويقر بأن الإلهام الإلهي هو الدافع لنشأة هذا العلم.

وعلى هذا الأساس واعتمادا على أن ابن خلدون قد اقتبس من آي القرآن الكريم أولى خطواته في إنشاء هذا العلم جاعلا الأرض وعمراتها مركزا أساسيا لبحوثه الاجتماعية، كما أنه اعتمد على القرآن في تفسير نشأة الكون حيث اقتبس من القرآن الكريم أن السماء والأرض كانتا رتقا فنتقها الله فنجد أنه يرى في القرآن المصدر الأساسي لتفسيراته يقول ابن خلدون:" ويتباين زحل واليهموت "[3]، وقد رمز صاحب المقدمة بكلمة اليهموت إلى الأرض وبكلمة زحل إلى السماء،[4] وهو يشير إلى قوله تعالى: {**أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا** }[5] [6].

ويغلب عليه اعتماد القرآن في القضايا العلمية باعتباره أول مصدر من مصادر الدراسات الدينية المتفرعة عنه، وهذا الكلام يؤكد لنا مدى تدبر ابن خلدون للقرآن ودراساته بل وتفاعله مع النص القرآني.

- **الأرحام والبيوت في القرآن وعند ابن خلدون:**

أشار ابن خلدون في خطبة كتابه المقدمة إلى الأرحام قائلا :(وتكنفنا الأرحام والبيوت)[7]، وهذه العبارة متعلقة بقصة الخلق والتكوين والتدرج في التكوين، والأطوار التي يمر بها الإنسان في خلقه ابتداء من التراب إلى آخر طور في حياته، وبما أن الأرحام هي مقر أهم هذه التطورات في خلق

[1] المقدمة، ص52.
[2] المصدر نفسه، ص52.
[3]- ابن خلدون: المقدمة، ص05.
[4] محمد العلاني: أثر الدراسات الدينية، ص988.
[5] سورة الأنبياء، الآية 30.
[6] محمد العلاني: أثر الدراسات الدينية، ص988.
[7] المقدمة، ص05.

الإنسان، وبما أن البيوت هي اسم مقر لحياة الإنسان من الأرحام إلى الوفاة فقد عبر عن كل هذه الحالات بقوله: "وتكنفنا الأرحام والبيوت".

وقد تعرض ابن خلدون إلى تدرج التكوين وتطوره على مدى خمسة فصول من المقدمة على الأقل، لكن الملحوظ أن هذه الفصول ذات محاور مختلفة واهتمامات متنوعة تتصل بهذه المواضيع.

فعلى سبيل المثال: فصل صناعة التوليد يعرض فيه لمسألة استكمال الخلق في الرحم ومسألة الإلهام الإلهي للمولود ومناقشة الفارابي وحكماء الأندلس في شأن انقراض الأنواع وتكريم الله لبني آدم[1].

وفي المقدمة السادسة في أصناف المدركين للغيب وتفسير حقيقة النبوة ويتعرض لمعالم التكوين والتدرج في التكوين ابتداء من العناصر[2].

[1] المقدمة، ص517.
[2] المصدر نفسه، ص597

وفي فصل في كشف الغطاء عن المتشابه من الكتاب والسنة تعرض لأطوار العالم البشري وخاصة الطور الجسماني، وكيف أن العالم البشري أشرف العوالم[1].

والعلاقة بين الأرحام والبيوت متينة جدا في البناء الإجتماعي والحضاري، عمد صاحب المقدمة إلى اثباتها بين الرحم الذي يعتبر المقر الأول لنشأة الإنسان، وبين البيت كمأوى يحمي هذا الإنسان قبل ولادته وبعدها، ولذلك جمع بين هذين المقرين اللذين يبنى الإنسان في كنفهما فلا يخرج من الأول إلا بعد انتهاء أطوار التكوين، ولا يخرج من الثاني إلا بعد انتهاء أطوار الحياة، وهو تقريبا ما ورد في القرآن الكريم من ربط عجيب بين الأرحام والبيوت قال تعالى: {**وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ** }[2]، وقال أيضا: {**وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً** }[3].

- **أعمار الدول والقرآن الكريم**

افتتح ابن خلدون الفصل الرابع عشر من الباب الثالث بالحديث عن أعمار الدول قائلا "إن الدولة لها أعمار طبيعية، كما للأشخاص"[4]، فيقرر ابن خلدون أن للدول أعمارا كأعمار الأشخاص، بمعنى إذا كان لكل شخص عمر محدد تنتهي عنده حياته، فإن للدول أعمارا محددة تنتهي بنهايتها ويزول سلطانها بانتهاء أيامها[5]، ونظرية أعمار الدول في الأساس قرآنية، وهي النظرية التي تمثل جوهر فكره في (الدورة العضوية) للدولة، أو (للحضارة)، حسب فهم بعضهم، وقال أيضا"إن الدولة في الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال، والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط، فيكون أربعين، الذي هو انتهاء النمو، أو النشوء إلى غايته، قال تعالى: { **حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً** }[6]، ولهذا قلنا: إن عمر الشخص الواحد هو عمر الجيل، ويؤيده ما ذكرناه في حكمة التيه الذي وقع في بني إسرائيل، وأن المقصود بالأربعين فيه، فناء الجيل الأحياء، ونشأة جيل جديد آخر، لم يعهدوا الذل ولا عرفوه"[7].

---

[1] ابن خلدون: المقدمة، ص600.
[2] سورة النحل، الآية 78.
[3] سورة النحل الآيات 78، 81
[4] المقدمة، ص213-213.
[5] الشكعة مصطفى: الأسس الإسلامية، ص79.
[6] سورة الأحقاف، الآية15.
[7] المقدمة، ص214.

وقاعدة أطوار الثلاث هي قياس كامل على عمر الإنسان ومراحل تطوره على ضوء الآية الكريمة {**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ** }.[1]

فنجد أن القرآن الكريم والحديث الشريف هما مصدراه لهذا التصور حول أعمار الدول.

ومن هنا نلاحظ أن ابن خلدون قد التزم الانطلاق من مفاهيم قرآنية وحديثية في تقدير أعمار هذه الملة، حيث قال: (وأعمار هذه الملة بين الستين والسبعين كما في الحديث)[2]، كما اعتمد على معطيات محيطه وعزف عن مذهب الأطباء والمنجمين في هذا الشأن بدليل قوله:(إن العمر الطبيعي للأشخاص على ما زعم الأطباء والمنجمون مائة وعشرون سنة) [3].

وهذا الفصل في أن للدول أعمار طبيعية كما للأشخاص قد امتاز الجمع بين معالم والمعطيات النقافية والحضارية(دين-علم-تاريخ- طب- تنجيم- طبيعة- نفس- عادة..).

ومن هنا نلاحظ أن هذه ابن خلدون استخلص من آيات القرآن الكريم مسائل حياتية واجتماعية وإنسانية في إطار تنظيره لعلم العمران البشري.

خاتمــة:

من خلال ما سبق نستنتج أن ابن خلدون قد توصل إلى سبك نظريته الاجتماعية و التاريخية والسياسية متأثرا إلى حد ما بتدبره الاجتماعي للقرآن الكريم، ولا نستغرب ذلك فتنشئته الدينية وتكوينه الشرعي والمحيط الإسلامي الذي كان يجول فيه ويصول،شكل أساسا لأداء ابن خلدون العلمي والفكري والإصلاحي وعنصرا مهما له أثره ونتائجه.

وقد اقتبس ابن خلدون من آي القرآن الكريم أولى خطواته في إنشاء علم العمران البشري جاعلا الأرض وعمراتها، والأرحام والبيوت إشارات لها دلالات واسعة وأساسيه لبحوثه الاجتماعية، كما لا ننسى خاصية أدبية شرعية كان ابن خلدون كثيرا ما يختتم بها بيانه لقضية أو مسألة ما هذه الخاصية تتمثل في ايراده لآية قرآنية أو أثر أو دعاء أو عبارة يقر فيها معنى عقديا أو أخلاقيا، وإن نظرية آجال وأعمار الدول قرآنية بالأساس والمنشأ.

---

[1] سورة الروم، الآية 54.

[2] انظر: المقدمة، ص485.

[3] المقدمة، ص213.